التفسير الصحيح الغائب لآية (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

محمد سعد زغلول سالم

الأربعاء ١٨ ديسمبر ٢٠١٩

أحزننى كثيراً أن يغفلَ كثيرون من أساتذة وعلماء جامعة الأزهر الشريف عن التفسير الصحيح لهذه الآية الكريمة إكتفاءاً بتفسيرات وتأويلات كثيرين من علماء وفقهاء الإسلام لها التى يركنُ إليها من يقرأ القرآن بغير أن يحاول تدبره وهو أمرٌ أوجَبَ ما يكون لهذه الآية والأيات المماثلة لها تحديداً التى تتحدث عن تفضيل الله لبنى إسرائيل بعدَ أن صارت هذه الآيات حجةً للعديد من اليهود ومن يُشايعُهُم من المتخاذلين والمنافقين والجاهِلِين من المسلمين الذين يُقِّرون بحق اليهود فى فلسطين إستناداً إلى فهْمِهِم القاصِرِ لهذه الآيات مثلما قالَ بهذا الأمر أحدُ أساتذة وإحدى أستاذات العقيدة بجامعة الأزهر فى أحد البرامج مؤخراً.

وقد أعادَت هذه الغفلة المؤلمة عن المعنى الصحيح للآية الكريمة ذكرى غابرة تعود إلى يومى ١٧ و١٨ من شهر مارس ١٩٨٢ عندما عَقدَت كلية طب جامعة قناة السويس حينذاك مؤتمراً علمياً حضره للأسف الكثيرون من أساتذة كليات الطب بجامعات إسرائيلية متعددة وفى أثناء الغذاء الذى عُقِدَ بأحد نوادى الإسماعيلية جمعنى بمحض المصادفة حديث مع أحد الأساتذة الإسرائيليين تطرق فيه إلى ضرورة أن يسود السلام والحب والوئام .. الخ الخ .. علاقات المسلمين باليهود وإستشهد فيه بهذه الآية الكريمة للتدليل على خطأ معاداة قومٍ فضلهم الله على العالمين مثلما تقول هذه الآيات. وقد كان ردى عليه صادماً له حيث أجبته بأنَّ ذلك التفضيل قد حَدَثَ عندما كان اليهودُ مسلمين. وعندما تبدت على ملامح وجهه وملامح من كانوا حاضرين الدهشة والإستغراب لهذا التفسير الذى لم يسْمعْ به ولم يقُلْهُ أحدٌ من قبل أجَبْتُه : مادُمتَ تستند إلى القرآن الكريم ففى القرآن الكريم نفسه ما يفيد أنَّ ذلك التفضيلَ قد حدث عندما كان اليهود مسلمين والأدلة على ذلك عديدة وكثيرة منها طلَبْ سحرة فرعون فى دعائهم إلى الله بعد أنْ حكم عليهم فرعون بالقتل والصلب بأنْ يتوفاهم مسلمين وكذلك قولُ فرعون نفسه بعد أن أوشكَ على الهلاك والخُسران المبين (إنى أمَنْت بما آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) بل وأنَّ سيدنا سليمان عليه السلام نفسه بما له من مكانةٍ عند اليهود قد أوتىَ كلُّ ما أنعم عليه به الله لأنه كان مُسلماً ودليلُ ذلك ما ضَّمَنه فى رسالته إلى أهل سبأ من طَلبه منهم (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) وما قالته ملكة سبأ (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

فكل هذه الآيات تدُّل دلالةً قاطعة ـ إضافةً إلى كَوْنِ الإسلام هو الدين الذى سارَ على هديه سيدنا موسى وسيدنا سليمان عليهما السلام ـ على أنَّ كلَّ ما فضل اللهُ به اليهود على العالمين وكلَّ ما أفاضَ به من نِعَم عليهم كانت لأنهم مسلمين. كما تكشف عن سبب غضب الله عليهم وعقابهم بالتيه والتشريد والعذاب والحرمان من طيبات الأكل بعد أنْ إرتدوا عن إسلامهم وبدأوا فى الإشراك بالله والمُجاهَرَة بمعصيته بعبادة العجل تارةً وتحديه بتبديل أحكامه وأوامره ونواهيه تارةً أخرى مروراً بعبادة الأصنام والأشخاص والملوك .. الخ الخ.

إننى أتعجب لغياب هذا التفسير الصحيح لآيات تفضيل بنى إسرائيل عن كلِّ مَنْ يقرأ القرآن ويتدبره مما أدى إلى التسليم بأفضلية اليهود وأحقيتهم فى أرض فلسطين التى كتبَها اللهُ لهم أيضاً عندما كانوا مسلمين وهو ما أصبح دعوةُ حقٍ يُرادُ بها باطِل بدأت فى الذيوع والإنتشار لبالغ الحسرة والأسى على ألسنة وأقلام كثيرين من المسلمين تبريراً لتطبيع العلاقات مع الإسرائيليين قبلَ أنْ يستردِّ الفلسطينيون حقوقهُم المُغتصبة والمنهوبَة فى فلسطين المحتلة. ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعْد.